رواية الحسناء

زنوبيا

تابع صفحة ١٩٠

فاجبته قائلاً : اني بكل اخلاص اعتقد بان اورليان لا يجسر عَلَى ان ياتي بعمل يسوءكم لاني اعرفه تماماً واعرف بانه من اللذين يحبون الرئاسة والرفعة وممن نبغوا في الفنون العسكرية . ومع ذلك فهو عادل ومحب للحق . غير ان حبه لروما الذي صار نوعاً من الجنون لربما يحدو به الى فكرة استرجاع وحدة بلاده القديمة ايام انطونين

فاذا اصر عَلَى هذه الفكرة من المؤكد دخوله في مشاكل تضر الامبراطورية وتسجل له الشين والعار . اما انا فسمعت الاشاعات التي ذكرتها لي . غير اني لا اعطيها اقل اهتمام وانا ارجو ان لا تؤثر عَلَى خاطر الملكة زنوبيا ولا عَلَى مستشاريها . فيكفيها مكانة انها ملكة عَلَى مملكة تمتد من مصر حتى بلاد اليونان ومن سوريا حتى نهر الفرات مع اعتبار مجلس الشيوخ لها كأنها احد افراده . فهذه مكانة عالية . واني اطلب من الالهة ان تحفظ سكان تدمر من اي ضرر يأتي عن يد اورليان بسبب عدم اعتدالهم او افراطهم في الحكم

ورأيت عَلَى محياهما بينما كنت اتكلم ايها العزيز كورتيوس علامات اكدت لي بانهما لا يحتملان اقل مزمة او احتقار لبلادهما

فاندهشت للمحل السامي الذي تشغله زنوبيا في قلوب رعاياها

ثم اجابني جريكوس قائلاً :

— انا اوافقك يا بيزو عَلَى ما قلت وسأعمل جهدي مستعملاً ما لي من النفوذ في البلاط حتى اجعل اعمالنا كلها غاية في الاعتدال . وخصوصاً في المخابرات السياسية . لان كلمة صغيرة خشنة تلفظ في غير موضعها ربما تقود امماً وممالك الى الخراب . ولكن اقول لك صريحاً بانه اذا وصل الينا من الغرب اخف اشارة من اورليان تدل عَلَى انه يعتبر زنوبيا مثلما يعتبر تيتريكوس في بلاد الجول (فرنسا) تأكد بان في تلك اللحظة نار الحماسة تتأجج في كل تدمر فلا يعود يطفئها الا سفك الدماء والحرب التي تشيب من هولها الاطفال . فالتدمريون كما تعرف تمام المعرفة كانوا من القديم احراراً كما جاء في التواريخ . فهم يدفنون انفسهم تحت انقاض عاصمتهم وبلادهم قبلما يخضعون لاية قوة اجنبية . لان الاستقلال

افضل اليهم من الحياة مع الذل والخضوع للاجنبي فهم كلهم يموتون حباً بحفظه

هنا صرخت فوستا : نعم يموتون ! لانه لا يوجد ولا واحد من سكان تدمر من اذا كان له روحان لا يبذل الواحدة حباً بالحرية والثانية حباً بزنوبيا . فلا تستغربنّ ذلك يا لوسيوس لانك ما رأيت بعد الملكة ولا تعرف مقدار الحب الذي في قلوب التدمريين من نحوها . فهي عندهم اخت وام وملكة

— دعونا الان من سياسة الممالك ولنصعد بحديثنا للامور الخصوصية لاني اعتقد بان فلسفتكما تعلمكما بان سعادة الافراد اساس سعادة الامم . ولهذا السبب فقط تكوّنت الحكومات فلنترك سياسة روما واوربليان ولنتكلم عن احوال العزيز لوسيوس بيزو لان مكتوبك الينا يخوّلنا حق السؤال بكل حرية واخلاص فما اتى بك الينا ايها الصديق من روما الى هذه البلاد والطريق صعبة والمسافة طويلة ؟ فنحن نشكر الالهة لتمتعنا برؤياك والتلذذ بطيب احاديثك . فعسى قدومك لغرض يسر . والآن اخبرنا الخبر اليقين . وتاكد بانا لك من اخلص المخلصين

فقالت فوستا بحرارة : — نعم تاكد ذلك وثق بانك تخاطب صديقين خبيرين ووفيين .

فاجبتهما : نعم اخبركما حكايتي ومع انها قصيرة فهي مهمة وتطلب الاسراع في العمل للانتهاء منها . فانا اعرضها عليكما مستشيراً بها اياكما . وانتما تعرفان تمام المعرفة كيف انتهت ايام ابي . واسفاه عليه ! وكيف تصرمت حياته . فانا كلما اتذكره تتقوى فيّ الفضائل . وتتحسن فيّ الصفات . اتصل ابي بالامبراطور فاليريان واصبح من اعوانه حتى اواخر ايامه اذ وقع في الاسر ونال ما نال معه من الهوان والظلم حتى سأم الحياة واستفظع ما اصاب مولاه من الجور . فاهلك نفسه ومات . وقبل مماته سنحت له الفرص فبث في اخوتي رغبته بان يتحدوا عمله اي اللحاق بفاليريان — ليس عاجلاً بل آجلاً . فقال لهم ذات يوم : انتم في عنفوان الشباب . وقوتكم امتن من قوتي فالالهة تساعدكم وتاخذ بيدكم على الاخذ بالثأر . وما الامل الا في ابناء الشباب . ومتى وأت الايام وجاءت الشيخوخة ذهب الامل . ولست انا الآن الا شيخاً لا انفع لشيء غير اني روماني ومن عائلة بيزو . فلا اطيق ملكاً فارسياً يضع قدمه على عنقي . فالموت اذا خيرٌ وابقى !

هذا ما قاله لهم قبيل وفاته . فرأى اخي البكر ان المحافظة على وصية ابي انفع واولى فعرّض نفسه للتهلكة . وذهب شهيد الشرف . اما نحن فاستحسنا عملها اذ انهما نجيا من اهانة سابور الظالم وآل بلاطه بواسطة اهلاك نفسيهما باختيارهما . غير ان اشاعة اتصلت

بنا قبيل سفري من روما بعدة ايام مآلها ان اخي كالبرنيوس حي ونحن نظنه سبق عالم الاموات . وهو مكرَّم في فارس وقد احبه ابن سابور واسكنه في قصره الخاص . وهو ينتظر من وقت الى آخر حضور من يسهل عليه سبيل الفرار . فيمكنكما الآن ان تتصورا اي حزن واي فرح استوليا عليَّ . فحزنت لتركنا اياه كل هذه المدة الطويلة في الاسر دون عمل شيء لخلاصه . وفرحت لاملي بقرب انباء . فتسرَّكنا وتذهب علامات الكآبة عن محيا بورتيا العزيزة . ولهذا الامل اثبت تدمر لظني بانها خير مدينة يمكنني ان ابتدي، فيها باعمالي . فانا اثق بمشورتكما واعمل بها بقدر الامكان حتى انجح واري اخي

وما اثبت عَلَى آخر مقالي حتى قالت فوستا لابيها : لو كانت الملكة زنوبيا هنا الان لكان الامر سهلاً وموكداً لنجاحنا اذ بواسطتها نتوصل لملك الفرس .... ولكن .... ثم توقفت فقال لها ابوها : عرفت ما اوقفك . فانك تعلمين ان ليس لزنوبيا من قوة عند ملك الفرس في هذه المسائل . الامر صحيح بانتا مع الفرس في سلام وتودد . ولكن هذا في الظاهر . وما نحن حقيقة الا اعداء الداء . نظراً لما قاساه سابور من بطش اودينانوس وزنوبيا في محاماتهما عن شرف روما والاخذ بثأر الامبراطور فاليريان . فالسياسة فقط هي الحافظة للسلام الذي بين الفرس وتدمر وليست المحبة المتبادلة او مراعاة الخواطر وسابور يخاف قوة زنوبيا متحدة مع روما ضده اذا حصل نزاع بينها وبينه . وثانياً هو يعرف تماماً ان تدمر هي كسور يصد اذى روما عنه . فمن صالحه وصالح مملكته بقاء تدمر مستقلة استقلالاً تاماً . لهذه الاسباب السلام سائد بيننا وبينه . حتى اذا وقع الحرب بيننا وبين روما من المؤكد انحيازه الينا وتناصرنه لنا مع كونه عدواً لنا . فغيلاء قد سقطت بعد المعركة المشهورة اذ وقعت زوجاته وكل حاشيته بين يدي الملك اودينانوس . فلهذا هو يشجع الفرس للايقاع بنا والانتقام منا . فسألتنا لا تنجح بها اذا طرقنا هذا الباب . وارى ان خير الطرق هو العمل سراً دون ان تتفاوض رسمياً

— لقد اصبت بما قلت . ولكن كلامك قد آلمني كثيراً . اذ الاحلام اللذيذة التي كنت احلم بها وانا عَلَى الطريق قد زالت . فكنت اظن ان توسلكما الى الملكة ينيلني ما ابغي . اما الان فقد ظهرت الحقيقة وقد اقتنعت بما قلت . وسأكرس نفسي للقيام بهذا الواجب المقدس سراً حتى ابلغ المنى . وروما نسيت امبراطورها اما انا فلا انسى اخي . وسأذهب بنفسي لعرين ذلك الوحش المتجبر . واعود ومعي الحبيب كالبرنيوس . ثلاث عشر سنة مرَّت عَلَى ذهابه من روما برفقة الامبراطور فاليريان في تلك الحملة المشؤمة .

وكأني اراه امام عيني وهو يودعنا وثوبه الحربي المعدني يلمع . كنت طفلاً يومئذ ومع ذلك ما زلت اتذكره كأنه كان البارحة . فبعد ان قبل بورتيا العزيزة وهي تبكي مال اليّ بينما كنت بين رجليه اداعب سيفه . وحملني مقبلاً اياي وطالباً من الالهة ان تصيرني رجلاً حالاً لا تولى امر المنزل ومهامه ثم ذهب مع الامبراطور ليحارب اعداء روما في اسيا . وكان اخي في ذلك الحين . واتذكر ذلك جيداً . ذا طبع حاد وحركة سريعة . لكنه كان من نحوي غاية في اللطف

فقالت فوستا : لتكن الالهة معك ولتساعدك في هذا الواجب المقدس الذي ستقوم به بنفسك

قال جريكوس مقاطعاً لا يا فوستا . لا تضعي صوتك لصوت صديقنا . ان هذا لعين الغرور والطيش . فان هذه المخاطرة التي سيعرض نفسه اليها ربما تعود علينا بشر اكبر لنجعل الحزم والحكمة رائدنا . فذهابك بنفسك ايها الصديق لبلاد الفرس معناه بكل تاكيد فقدانك وعدم عودتك . فتخسرك ولا تعمل شيئاً يفيد المهمة التي امامنا الان . فيجب علينا قبل كل شيء النظر في احوال كالبرنيوس . فقد صار له في الاسر ثلاثة عشر سنة . وقد قلت بان ابن سابور صادقه وصافاه . واسكنه قصراً فخيماً . فمن الممكن ان يكون قد صار فارسياً لمضي كل هذه السنوات عليه وهو محاط بالفارسيين . ويمكننا ان نتصورا حالة انسان مثله يبقى في الاسر ثلاثة عشر سنة دون ان تمد اليه بلاده يد المساعدة لانقاذه و بالاخص اذا كانت تلك البلد روما رئيسة الدنيا . فالحالة هذه يغلب على الظن ان كالبرنيوس يعيش الان هناك عيشة امير نظراً لمصادقة ابن سابور له . فشوقي لك ايها الصديق هو انه قبلما تعرض نفسك للخطر وانت اخر واحد الذي يحمل اسم بيزو يجب عليك ان تكون على يقين من الامر . فما هو الذي عرفته للان عنه ؟ وعلى اي شيء نتكل حتى نعمل عملاً بحكمة . فقلت — معلوماتي تقتصر على قول جندي فر من الامر الينا فاخبرنا وقال بانه رأى كالبرنيوس وجهاً لوجه . وهو مهاناً مع الامبراطور فاليريان في بلاط الفرس . وقد اكد بان ما اتصل الينا من اخبار المعاملة القاسية التي كان يعامل بها الامبراطور هي حقيقة . فان ملك الفرس كان يحضر فاليريان الامبراطور وهو بثيابه الملوكية الارجوانية و يضع قدمه على ظهره حتى يركب جواده امام الشعب وآل بلاطه . و بذات الوظيفة وضع سابور كالبرنيوس في قصر ابنه الامير هو رميسداس . اي ليكون كمصعد ليصعد الامير عليه الى ظهر جواده . فكم كان يحزن ذلك الامير على كالبرنيوس

لما كان يلاقيه من ضروب الاهانة بسبب اوامر الملك • ومرات كثيرة كنت لما يضع قدمه على ظهر كاليرنيوس يسر اليه كلمات العزاء وبعده بالفرج عندما يحالف اباه على العرش • له خاصة • وتولى الامير امر كاليرنيوس • واسكنه معه ولكن الجندي لم يعرف باي نوع من الحرية عاشا ولا اذا كان كاليرنيوس حياً وقت فراره • هذا كل ما عرفناه ايها الصديقان غير اننا علمنا اخيراً بان فاليريان اثرث الاحزان فيه ففقدي نحبه وحنط سابور جسده وحفظه • حتى انه كلما يراه يتذكر بانه غلب الجنود الرومانية ونال النصر على صفوفها

وما انتهيت من سرد هذه الحكاية حتى قالت لي فوستا

— انها لحكاية مؤثرة • فرجل شجاع كهذا الموت أسهل عليه من هذه المعيشة وصرت اري الآن ان فكر ابي صواب • فان كاليرنيوس يكون الآن قد نجي روما وما فيها نظراً لعدم ارسال الحكومة من يساعده في النجاة من الاسر وفوق هذا فمعاملة الامير له باللين والمجيء بما تكون سجونه وجعلته ان يحقد على بلاده و يسلوها • فلذا لا تتركك تسافر وتخاطر بنفسك لاجل امر لست على يقين منه • ولديها هنا اناس الشجاعة والامانة من صفاتهم فيمكنك ان توسل واحداً منهم • بعدما تعده بجائزة كبيرة تغنيه بها • فيذهب ويأتي لك اما باخيك • او بالخبر اليقين عنه

قال ايوها ان ما قالته فوستا لعين الصواب • فيمكنك ان تجد هنا في العاصمة رجلاً باسلاً لا يهاب الموت • يأخذ هذا العمل على عاتقه فيعمله باتقان وكمال اكثر منك • وعاصمتنا ملأ يقوم من السوريين واليونان والعرب والرومان هذا شأنهم • فاتئق لك برجلاً يعرف الطريق لبلاد الفرس و يعرف لغة البلاد ولهجة كلام سكانها • لنضع هذه المهمة الخطيرة على عاتقه • وليكن امر ايجاد هذا الرجل شغلنا الشاغل كلانا • اما الآن فالمدينة أمست في سكون عميق لنوم سكانها • وكان الاحسن بنا الاقتداء بهم • فيا فوستا قومي واسمعينا اغنية من اغانيك المحزنة الميرانية على العود حتى يسر لوسيوس و يطرب

اما انا فالحظت عليها بذلك فقامت ومشت نحو نافذة مفتوحة كانت تتدفق منها اشعة القمر الفضية باتدفاق عظيم • ثم جلست امام آلة هناك وقالت : سأغني لكما هذه الاغنية بالميرانية لان هذه اللغة تلائم النبرات الموسيقية اكثر من اليونانية

ثم ابتدأت فاسمعتنا صوتاً خلب الباب • وكان صوتها محزناً ومؤثراً للغاية يشبه انين ريح اشجار عارية من الورق من غابة بعيدة • ثم اعقبتها بنشيد محزن يثير الشعور • وفي بعض الاحيان كان صوتها يرتفع ارتفاع الانتصار فيخال لي اني طرت معه الى حيث لا اعلم

وكان النشيد عن اسرائيلي يندب اورشليم المدينة المقدسة وهو في الاسر في بابل ثم ان ذلك الجندي نقل من جوار القصر الملوكي وصار لا يرى فالبريان وقد طلب منه اعداءه انشاد نشيد وطني حتى يطربوا فاجابهم بما انشدته فوستا على عودها وها هو : (١)

جانب الانهار في بابل جلسنا
حينما صهيوننا بالبكا ذكرنا
ثم علقنا على الـ شجر الاعوادا
حيث من عذبنا طلب الانشادا
فرحاً سألنا معشر صيونا
ان نرنم لهم بغنا مهيونا
كيف نشدو طرباً بفنا بارينا
في ديار غربة حينما سبينا
ان انا نسيت أو رشليم يوماً
تنس يميني اذن عند ذاك دوماً
ثم يلتصق في حنكي لساني
ان لها لم اذكرن مدة الزمان

وبينما كانت فوستا تنشد هذا النشيد كان في رأسي فكر واحد يشغلني . وما انتهت حتى سألتها : وهل تظني يا فوستا بان الاسير اليهودي لا ينسى بلاده مدة العمر والاسير الروماني ينسى روما؟ لا يا فوستا ابداً . فكالبرنيوس اذا كان بعد حياً فهو يعيش رومانياً . ولذلك انا اشكرك من اجل نشيدك هذا لانه اولد في الفرح والسرور مع ان ملئه الحزن والكآبة . والان سأنام ملء جفني قرير العين والفؤاد . فاستودعك الله ثم افترقنا . وهذه اول ليلة لي في تدمر

(١) مزمور ١٣٧ نظم الياس صالح اللاذقي